إسطنبول مدينة اختصرت قارتين في شطرين

إسطنبول هذه المدينة التركية الجميلة التي تجمع سحر الشرق و الغرب، زارها الإعلامي في قناة العربية محمد أبو عبيد فأخذته إلى عالم تلاعب ببصره ليدهشه بألوان الحياة فيه، فصال و جال في أحياء المدينة العتيقة و أسواقها و جوامعها و أبحر في مياه مرمرة نحو جزيرة الأميرات و استرخى في مدينة بودروم إلى أقصى الحدود.

في هذه الصفحات يدعونا أبوعبيد إلى التجوال في هذه المدينة كما رأتها عيناه و صوّرتها ذاكرته قبل كاميرته فكتب عنها و قال: إسطنبول مدينة لها سحرها الخاص الذي يجعلها تختلف عن نظيراتها من المدن، و تنفرد بكونها المدينة الوحيدة في العالم التي اقتطفت حصتها من قارتين :آسيا و أوروبا، و إنْ فصَل بين شطريها مضيق البوسفور الجميل بمائه، و الخلاب بمنظره، فإن الجسر المعلق يبقي اللحمة بين شطري المدينة البديعة.

في هذه المساحة للتحدّث عن إحدى رحلاتي، لن ألج في تاريخ المدينة الحافل بالأحداث و المشوق.

سأترك الأمر إلى مِعْول (غوغل) حيث يمكن للباحث عن تاريخ المدينة أن (يغوغله)، لكني في هذا المقام سأتقدم إلى القارئ بانطباعات السائح العادي، لا الرحالة المؤرخ.

كنت أسابق الزمن و أنا أتجول في أرجاء المدينة الشاسعة المرامي، فما بين طرفة عين وانتباهاتها، يجذبك منظر خلاب، و مبنى جديد أو آخر قد شاب.

فتلك المدينة تعبق بتفاصيل الماضي، و تتعطر بتقاسيم الحاضر، و كله ينبئك بشكل المستقبل. عن اليمين قصة و عن اليسار قصة.

تارة أنا في آسيا بنمط حياتها و ملامح أحيائها (اقصد البشر لا الحارات)، و تارة أخرى أنا في أوروبا بشكلها و مضمونها و انفتاحها، فاسطنبول هي المدينة التي اختصرت قارتين في شطرين.

و فيها ترى الناس من كل الأجناس، هذا ما تختزله ساحة تقسيم في المدينة، و خصوصاً شارع الاستقلال الذي لا يعرف سُباتا، حيث السياح تتلامس أكتافهم لكثرتهم منذ أنِ الليلُ عسعس حتى إذا النهار تنفس.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

تنطلق الحافلة السياحية في رحلتها اليومية.

هنا، لا بد من التأكد من جهوزية الكاميرا التي ستحتفظ بالذكريات في مكان مثل إسطنبول...

و حيث الحافلة تسير، و المرشدة السياحية تشرح ما نراه على الجنبات، ترى من أفق، ليس ببعيد، ذلك الصرح الذي طالما رأيته في الصور.

إنه قصر الباب العالي (توبكابي) الذي كان مركز الحكم في الدولة العثمانية، و ظل قصراً للسلاطين و حاشياتهم و زوجاتهم و أهليهم، و أيضاً مقراً رسميا لاستقبال الضيوف و الزوار، و ما إنْ ظننتُ أن عينيّ قد رويتا من جماليات هذا القصر، حتى رأيتهما متعطشتين للارتواء من قصر دولمه بهجه أحد أفخم القصور العثمانية المتربع على الضفة الأوروبية من البوسفور، و الذي بني بين عامي ١٨٤٢ و١٨٥٣.

ثم قلت يا عينُ مهلاً لا تشبعي... في إسطنبول لا تشبع العين و فيها ما يستحق النظر..

و كيف تكتفي و المسجد الأزرق له ما يقصه على زائريه، إنه المسجد الذي بناه السلطان أحمد، قرب الكنيسة الشهيرة (آيا صوفيا) المبنية على الطراز «البازيليكي» و التي تحولت مسجداً ثم متحفاً جمع الصرحيْن معا بالعمارة البيزنطية و الزخرفة العثمانية.

اللافت أن الامبراطور جوستنيان، الذي بنى الكنيسة على أنقاض كنيسة أقدم بناها الإمبراطور قسطنطين و التهمتها نيران الشغب، من شدة إعجابه بروعة المعمار، لم يشأ أن يطلق عليها أيا من أسماء القديسين، بل سماها «الحكمة الإلهية أو المقدسة» (آيا صوفيا).

للبحر حكاياته و لو بمضيقه، لكن المضيق فسيح يسيح المرء بطوله.

فهو الرحب بقصصه الغني بمناظره.

كنت أتلفت ذات اليمن و ذات اليسار متبوئا مكاني على المركب الذي يتلذذ بسادية الماء الذي يلطمه،

و أرى الخضرة كست ضفتي البوسفور، تتغلغل فيها تلك البيوت الجميلة، حتى تمنيت لو امتلكت أحدها، لعله ينسيني هموم العيش و مشقته لولا قلة المال.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

و قبل المغيب، بعد أن انتهت الرحلة البوسفورية، رحت ارتشف قهوتي المفضلة في مكان تتجلى فيه جمالية مغيب الشمس، المتمازجة بروعة البوسفور حيث الجسر المعلق يغنيك عن التعليق.

فالشمس حينها لا تقول وداعاً، بل إلى لقاء يتجدد.

في مطاعم المدينة التي لا تُحصى، استطيبت المذاق التركي الأصيل الذي ترك أثراً في مأكولاتنا العربية بل وأورثنا بعض أسمائه.

و أيضا استعذبت الطبق الغربي، و لا عجب في ذلك ما دمت قي قارتين.

و إذا ما أرخى الليل سدوله، كان عليّ أن أستلّ النصائح من الدارين بحياة الليل الاسطنبولي، فما أكثر الأماكن و ما أكثر الفاعليات، فيجب أن اختار حيث الليالي معدودات.

في أحد المطاعم الذي لا يكتفي بوجباته اللذيذة، إنما يقدم فاعليات تصور الفولكلور الشعبي إضافة إلى الفن العصري، كان لافتاً وضع العلم التركي على الطاولة، إلى جانب علم الدولة التي ينتمي إليها السائح، لفتة تركت أثرا طيباً في نفسي.

جزيرة «الأميرات»، كيف لي أن أسمع عنها و لا أشق عباب البحر صوبها! الجزيرة التي يسميها الأتراك بيوك آضه، و كانت منفى الأميرات خلال الحكم البيزنطي، اختطفت مني نهارا كاملاً.

انطلق المركب متحدياً أمواج مرمرة، و على متنه أكثر من ألف سائح، هو مركب من عشرات المراكب التي تنطلق إلى الجزيرة يومياً.

على مدى قرابة خمسين دقيقة ليس للعين إلا أن تتمتع بما ترى.

في الجزيرة حيث لا سيارة، تمتطي العربة التي وقعت مهمة جرها على حصان أو اثنين، و تصول في أرجاء الجزيرة التي تلفها الأشجار الشاهقة، و تفتنك مناظر البيوت الجذابة.

ثم نقت ضفادع بطني، حينها لا أطيب من وجبة سمك بالطريقة التركية على شاطئ البحر.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

شحنت نفسي من جديد و استأجرت الدراجة الهوائية لأسيح في شوارع الجزيرة الضيقة و أزقتها قبل أن ينادي منادٍ أن استعدوا للإياب إلى أسطنبول.

و لأني من عشاق البحر و التسمر (البرونزاج) أيقنت أن إسطنبول ليس المكان الأمثل لذلك رغم كل ما تتمتع به (عمر الزين ما اكتمل) و ذلك ليس عيباً منها، إنما من بحرها مرمره، فكان أمامي أن أختار بين المتوسط أو بحر إيجه، و لأن المتوسط لنا منه نصيب، آثرتُ بحر إيجه متجها صوب مدينة بودروم الهادئة الوديعة التي تبرأتْ من صخب المدن و ضجيجها.

هناك كان لا شغل لي سوى مصاحبة الشمس بعد شروقها بسويعات و حتى ما قبل غروبها متلذذا بمياه البحر، و خيالي شارد في عظمة الخالق و ما أبدعه من بحر و يابسة، و كنت لا أبالي بأشعة الشمس و هي تلسعني ما دام كان ذلك مقصدي.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١